التربية والتعليم عند القدماء

(تابع ما قبلهُ)

ومما جاء في كتاب (الدرّ النضيد في ادب المفيد والمستفيد) لبدر الدين الغزي الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٤ هـ من هذه الآداب قولهُ : (١)

في آداب المعلم في نفسهِ — انهُ يتعين على طالب العلم ان لا ينتصب للتدريس حتى يكمل اهليتهُ ويشهد لهُ بهِ صلحاً مشايخهُ . ففي الخبر الصحيح : المتشبع بما يعطى كلابس ثوبي زور . وقال الشبلي : من تصدر قبل اوانهِ فقد تصدى لهوانهِ . وعن ابي حنيفة (رضه) من طلب الرئاسة في غير حينهِ لم يزل في ذلّ ما بقي . واللبيب من صان نفسهُ عن تعرّضها لما يمدُّ فيها ناقصاً ويتعاطيهِ ظالماً

(ومنها) ان لا يطلب على تعليمهِ اجراً ولا يقصد بهِ جزاء ولا شكوراً . قال تعالى : قل لا أسألكم عليهِ اجراً

(ومنها) ان لا يذل العلم ولا يذهب بهِ الى مكان ينسب الى من يتعلمهُ منهُ وان كان المتعلم كبير القدر بل يصون العلم عن ذلك كما صانهُ السلف . واخبارهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم . وقال الزهري : هوانٌ بالعلم ان يحملهُ العالم الى بيت المتعلم

(ومنها) وهو من اهمها : ان يكون عاملاً بعلمهِ فلا يكون فعلهُ مناقضاً لقولهِ . ولذلك قيل :

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليك اذا فعلتَ عظيمُ

قال تعالى : أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم (الآية) ولذلك قال علي (رضه) : قصم ظهري عالمٌ متهتك وجاهل متنسك . فالجاهل يغش الناس بتنسكهِ . والعالم ينفرهم بتهتكهِ . ولبعضهم في معنى ذلك :

---

(١) ربما ورد في بعض الابحاث اشياء متكررة ولكنها في محل اصرح من غيرها وعليها تعاليق مفيدة

فساد كبير عالم متهتك وأكبر منهُ جاهلٌ متنسك
هما فتنة للعالمين عظيمة لمن بهما في دينهِ يتمسك

(ومنها) ان يستحضر في ذهنهِ كون التعليم آكد العبادات ليكون ذلك حاثاً لهُ على تصحيح النية وحمْلاً لهُ على صيانتهِ من مكدّراتهِ مخافة فوات هذا الفضل العظيم والخير الجسيم

ومما جاء في هذا الكتاب قول القاضي ابن احمد السيجري في آداب التلميذ بعد تلقن درسهِ :

اخدم العلم خدمة المستفيد وأدمْ درسهُ بفعل حميد
واذا ما حفظتَ شيئاً اعدهُ ثم اكدهُ غاية التأكيد
ثم علقهُ كي تعودَ اليهِ والى درسهِ على التأييد
واذا ما امنتَ منهُ فواتاً فاتدبْ بعدهُ لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم منهُ واقتناء لشأن هذا المزيد
ذاكرِ الناس بالعلوم لتحيا لا تكن من أولي النهى ببعيد
ان كتمتَ العلوم أُنسيت حتى لا تُرى غير جاهلٍ وبليد
ثم أُلجتَ في القيامة ناراً وتلهّبتَ في العذاب الشديد

ومن آداب الطالب : ان يقلّل نومهُ ما لم يلحقهُ ضرر في بدنهِ وذهنهِ ولا يزيد في نومهِ في اليوم والليلة على ثماني ساعات وهي ثلث الزمان فان احتمل حالهُ اقلّ منها فعل . ولا بأس ان يريح نفسهُ وقلبهُ وذهنهُ وبصرهُ اذا كلّ شيء من ذلك او ضعف باستراحة وتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود الى حالهِ ولا يضيع عليهِ زمانهُ

ومن آداب الاستاذ ان يعمل بقول القاضي ابي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني من ابيات فيها اشارة الى اتقان فن واحد مما يعرف بالاخصاء :

ولم اقضِ حقّ العلم ان كان كلما بدا طمعٌ صيّرتهُ لي سلّما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لاخدمَ من لاقيتُ لكن لأُخدما

أأشقى بهِ غرساً واجنيهِ ذلةً اذاً فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان اهل العلم صانوهُ صانهم ولو عظموهُ في النفوس لعظما
ولكن اذلوهُ فهانَ ودنَّسوا محيَّاهُ بالاطماع حتى تجهما

ومن آداب المعلم مع طلبته : انهُ ينبغي لهُ ان يطرح على اصحابهِ ما يراهُ من مستفاد المسائل ويختبر بذلك افهامهم . ويظهر فضل الفاضل ويثني عليهِ بذلك ترغيباً لهُ وللبافين في الاشتغال والفكر في العلم وليتدرَّبوا بذلك ويعتادوهُ ولا يعنف من غلط منهم في ذلك الاَّ ان يرى في تغليطهِ مصلحة

(ومنها) اذا فرغ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق بهِ على الطلبة واعادة ذكر ما اشكل منهُ ليمتحن بذلك فهمهم وضبطهم لما شرح لهم فمن ظهر استحكام فهمهِ لهُ يتكرار الاصابة في جوابهِ شكرهُ . ومن لم يفهمهُ تلطف في اعادتهِ لهُ . والمعنى في هذا ان الطالب ربما استحيى من قوله : لم افهم اما لدفع كلفة الاعادة على الشيخ او لضيق الوقت او حياء من الحاضرين او كيلا تتأخر قراءتهم بسببهِ . ولذلك قيل لا ينبغي للشيخ ان يقول للطالب هل فهمت الاَّ اذا أمن من قولهِ : نعم . قبل ان يفهم . فان لم يأمن من كذبهِ لحياء او غيرهِ فلا يسألهُ عن فهمهِ . لانهُ ربما وقع في الكذب بقولهِ : نعم لما قدمناهُ من الاسباب . بل يطرح عليهِ مسائل كما ذكرناهُ . فان سألهُ الشيخ عن فهمهِ فقال نعم فلا يطرح عليهِ المسائل بعد ذلك الاَّ ان يسترعي الطالب ذلك الاحتمال خجلةً بظهور خلاف ما اجاب بهِ . وينبغي للشيخ ان يأمر الطلبة بالمرافقة في الدرس واعادة ما وقع عن التقرير بعد فراغهِ في اذهانهم

(ومنها) ان ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وان كان صغيراً فان ذلك من بركة العلم . قال ابن عبد البرّ : من بركة العلم وآدابهِ الانصاف . ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم . ويلازم الانصاف في بحثهِ وخطابهِ ويسمع السؤال من موردهِ على وجه وان كان صغيراً ولا يترفع عن سماعهِ فيحرم الفائدة ولا يحسد احداً منهم لكثرة تحصيلهِ فالحسد حرام للاجانب فكيف بمن هو بمنزلة الولد وفضيلتهُ يعود الى معلمهِ منها نصيب وافر فانهُ مربيهِ ولهُ في تعليمهِ وتخريجهِ في الآخرة الثواب الجزيل وفي الدنيا الدعاء المستمر والثناء الجميل

(ومنها) أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عندهُ في مودّة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سنّ أو فضيلة او تحصيل او ديانة فان ذلك ربما يوحش الصدر وينفر القلب فان كان بعضهم اكثر تحصيلاً واشدّ اجتهاداً واحسن ادباً فاظهر اكرامهُ وتفضيلهُ وبيّن ان زيادة اكرامهِ لتلك الاسباب فلا بأس بذلك لانهُ ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات

(ومنها) ان يقدم في تعليمهم اذا ازدحموا الاسبق بالاسبق ولا يقدم باكثر من درس الا برضى الباقين ويختار اذا كانت الدروس في كتاب واحد باتفاق منهم وهو المسمّى (بالتقسيم) أن يبدأ في كل يوم بدرس واحد منهم فان الدرس المبدوء ربما حصل فيهِ من النشاط في التقرير ما لا يحصل في غيرهِ الا اذا علم من نفسهِ عدم الملالة وبقاء النشاط. فيرتب الدروس ترتيب الكتاب فيقدم درس العبادات على درس المعاملات وهكذا. وان رأى مع ذلك تقديم الاسبق لحضّ المتأخر على التقدم كان حسناً. وينبغي ان لا يقدم احداً في نوبة غيرهِ ولا يؤخرهُ عن نوبتهِ الاّ اذا رأى في ذلك مصلحةً كنحو ما ذكرنا. فان سمح بعضهم لغيرهِ في نوبتهِ فلا بأس. وان جاؤوا معاً وتنازعوا أقرع (اي عمل اقتراعاً)

(ومنها) اذا سلك الطالب في التحصيل فوق ما يقتضيهُ حالهُ او تحملهُ طاقتهُ وخاف ضجره اوصاهُ بالرفق بنفسهِ مما يحملهُ على الاناة والاقتصاد في الاجتهاد. وكذلك اذا ظهر منهُ نوع سامة او ضجر او مبادىء ذلك امرهُ بالراحة وتخفيف الاشتغال ولا يشير على الطالب بتعلم ما لا يحتملهُ فهمهُ او سنهُ. او بكتاب يقصر ذهنهُ عن فهمهِ. فان استشارهُ من لا يعرف حالهُ في الفهم والحفظ في قراءة فن او كتاب لم يشر عليهِ بشيء حتى يجرّب ذهنهُ ويعلم حالهُ. فان لم يحتمل الحال التأخير اشار عليهِ بكتاب سهل من اتقن المطلوب فان رأى فهمهُ جيداً او ذهنهُ قابلاً نقلهُ الى كتاب يليق بذهنهِ والاّ تركهُ وذلك. لان نقل الطالب الى ما يدلُّ نقلهُ اليهِ على جودة ذهنهِ مما يزيد انبساطهُ. والى ما يدل على قصورهِ يقلل نشاطهُ. ولا يمكن الطالب من الاشتغال في فنين او اكثر اذا لم يضبطهما بل يقدم الاهم فالاهم. واذا علم او غلب على ظنهِ انهُ لا يفلح في فنّ اشار عليهِ بتركهِ والانتقال الى غيرهِ مما يرجى فلاحهُ فيهِ

(ومنها) ان لا يتأذى ممن يقرأ عليه اذا قرأ على غيره. قال النووي: وهذه مصيبة يبتلى بها جلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم وهو من الدلائل الصريحة على عدم ارادتهم بالتعليم وجه الله الكريم. وقد قدمنا عن علي (رضه) الاغلاظ في ذلك والتأكيد في التحذير منهُ. وهذا اذا كان المعلم الآخر اهلا فان كان فاسقاً او مبتدعاً او كثير الغلط ونحو ذلك فليحذّرهُ من الاغترار بهِ والله يعلم المفسد من المصلح

ومن آداب الطالب في درسه: ان لا يدع فنًّا من العلوم المحمودة ونوعاً من انواعها الاَّ وينظر فيهِ نظراً يطّلع بهِ على مقاصدهِ وغايتهِ. ثم ان ساعدهُ العمر طلب التبحّر فيهِ والاَّ اشتغل بالاهم فان العلوم متقاربة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد من ذلك الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهلهِ بهِ فان الناس اعداء لما جهلوا. ولبعضهم:

تفنن وخذ من كل علم فانما يفوق امرؤ في كل فن لهُ علمُ
فأنت عدوٌّ للذي انت جاهلٌ بهِ ولعلم انت تتقنهُ سلمُ

قال الغزالي (رحمه) واعلم ان العمر لا يتسع لجميع العلوم فالحزم ان يأخذ من كل علم احسنهُ ويكتفي منهُ بقدرهِ ويصرف جمام قوّته في العلم الذي هو اشرف العلوم وهو علم الآخرة ولا يرشدك اليهِ الاَّ حرصك في الطلب

ومن آداب الطالب مع شيخهِ: أنهُ ينبغي ان ينظر معلمهُ بعين الاحترام والاجلال والاكرام ويعتقد فيه كمال اهليته ورجحانه على كثير من اهل طبقته فان ذلك اقرب الى انتفاعهِ به ورسوخ ما يسمعهُ منهُ في ذهنه. وكان بعض السلف اذا ذهب الى شيخهِ تصدق بشيء وقال: اللهمَّ استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني. وقال الشافعي (رضه): كنت اصفح الورقة بين يدي مالك (رحمه) صفحاً رفيقاً هيبةً لهُ لئلاَّ يسمع وقعها (او رفعها). وقال الربيع (رحمه): والله ما اجترأتُ ان اشرب الماء والشافعيّ ينظر اليَّ هيبةً لهُ

هذه لمعة من آداب التدريس عندهم واما فنون التربية فشواهدها كثيرة وكتبها متداولة بين الايدي وللمطالع الحكم في المقابلة بين اساليبهم في التربية والتعليم وبين اساليبنا العصرية اليوم

ومن آداب التدريس الإجازات — وقد ألف العرب فيها كتباً منها كتاب (الوجازة في الاجازة) للوليد بن بكر. ولقد تصفحت كثيراً من اجازاتهم وتواقيعهم في صناعة التدريس وسجلاتهم فيها ووصايا المدرّسين واشباهها ووقع لي كثير منها في المطبوعات والمخطوطات قديمها وحديثها نثراً ونظماً فرأيت فيها آداباً جمة واساليب مختلفة انتخب الآن شيئاً منها تتمة لهذا البحث

فمن نسخة توقيع في صناعة التدريس من الامام الناصر لدين الله الى القاضي محيي الدين محمد بن فضلان بتدريس المدرسة النظامية في بغداد سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) بعد مقدمة طويلة بليغة :

«ورسم لهُ تقديم تقوى الله تعالى التي ما زال منتهجاً لطرائقها متمسكاً بعصمها ووثائقها وان يشرح صدرهُ للمتعلمين ولا تأخذهُ ضجرة من المستفيدين ولا تعدو عيناهُ عن جهلاء الطالبين ولا يتبرّم بالمبالغة في تفهيم المبتدي ولا يغفل عن تذكير المنتهي فانهُ اذا احتمل هذه المشقة واعطى كل تلميذ حقهُ كان الله تعالى كفيلاً بمعونتهِ بحسب ما يعلم من حرصه عليهم وإخلاص نيته. وليكن بسائر المتفقهة معتنياً رفيقاً وعليهم حدباً شفيقاً يفرغ لهم من الفقه ما وضح وتسهّل ويبين لهم ما التبس من غوامضه واشكل حتى تستنير قلوبهم باضواء علوم الدين وتنطق ألسنتهم فيها باللفظ الفصيح المبين وتظهر آثار بركاتهِ في مراشده وتبين ولتتوفر همتهُ في عمارة الوقوف واستنمائها والتوفر على كل ما عاد بتزايدها وزكائها بحيث يتضح مكان نظره فيها ويبلغ الغاية الموفية على من تقدمها ويوفيها ولا يستعين الا بمن يؤدي الامانة ويوفيها ويقوم بشرائط الاستحفاظ ويكفيها»

ومن نسخة سجلّ بتدريس في مدينة الاسكندرية :

«وامر امير المؤمنين ان تدرّس علوم الشريعة للراغبين. وتعلم ما علمك الله اياهُ لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين. وخرج امرهُ بكتب هذا المنشور بذلك شدّاً لازرك. وتقوية لامرك. ورفعاً لذكرك واعتمد توزيع المطلق عليهم. وتقسيمهُ فيهم. على حسب ما يؤدي اجتهادك اليهِ. ويوفقك نظرك عليهِ. وقرّب من ارتضيت طريقتهُ. وأبعد من انكرتَ قضيتهُ. فقد وكل ذلك اليك. من غير اعتراض فيهِ عليك»

ومما قيل في كرم الاستاذ بالتعليم قول بعض الحكام في وصاياه :

« وانتصب للدروس التي تقدمت بها على وافد الطلبة فان الكرم لا يمحقه الالتماس . والمصباح لا يفني مثله كثرة الاقتباس . والغمام لا ينقصه توالي المطر ولا يزيده طول الاحتباس . والبحر لا يتغير عن حاله وهو لا يخلو عن الوُرّاد في عد الانفاس »

ومن الاستجازات الشعرية قول احمد بن الحاج البيدري الورنيدي المغربي المتوفى نحو سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) يستجيز احمد بن زكري من قصيدة ضمنها بعض ألفية ابن مالك النحوية :

اجازة تممهُ ونسلهُ حاوية معنى الذي سيقت لهُ
تقضي لهُ بالمجد والتعزز وتبسط البذل بوعد منجز
وتقتضي رضًى بغير سخط تغنيه عن نوال كل معطٍ
مطلقة في الفقه والنحو وما سواهما والقيد لن يلتزما
لانها كل العلوم شملت ان تكُ مما قيدت به حلت
ولا تخصص نوع ما قد يحسن لان قصد الجنس فيه بيّنُ

ومن الاجازات قول الشيخ عبد الغني النابلسي يجيز تلميذهُ ابن السمان المتوفى سنة ١١٧٢ هـ (١٧٥٨ م) بهذه الابيات :

لك الحمدُ ربٌّ بالانام خبير مريد لكل الكائنات قديرُ
عليم حكيم جلّ ليس كمثله كما قال شيءٌ سامع وبصيرُ
ومنهُ على (طاها) الرسول نبينا صلاة وتسليم هناك كبيرُ
ورضوان رب الناس عن كل آله واصحابه والتابعين كثيرُ
وبعد فمن (عبد الغني) اجازة لمن هو مخصوص بها وجديرُ
لمن حاز فضلاً بالسعيد محمد تسمّى وبالآداب منهُ يشيرُ
وبالفضل والتوفيق لازال قائمًا لهُ الله ربي حافظ ونصيرُ
اجزتاهُ فيما قد اجاز شيوخنا لنا من علوم وصفهن شهيرُ
كفقه وتفسير ونحو وكل ما لدينا يعلي الفتى ويثيرُ
وما نحن نرويه من الكتب التي لنا سند فيها اليه نشيرُ

وفي كل تصنيف لنا ومؤلف وذاك طويل جامع وقصيرُ
وما كان منظوماً لنا من كلامنا وما فيه طرف الناظرين قريرُ
صلاة وتسليم (لطاها) وآله ومن قدرهم في العالمين خطيرُ
مدى الدهر ما هبت صبا وترنمت سويجمة الوادي وفاح عبيرُ

وهذه اجازة في مكتبتي بخط الشيخ حسن بن محمد العطار المتوفى سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤ م) لتلميذه عبد القادر الخلوصي الحلبي هاك نصها بحروفها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين. اما بعد فان الشاب النبيه عبد القادر بن الحاج ابرهيم الخلوصي الحلبي الطبيب هو ووالده وجده واهل بيته من قديم الزمان شهدت لهم بذلك حذاق الصناعة واهل البراعة وظهرت على يد اهل ذلك البيت دقائق في تلك الصناعة واعمال عجيبة مشهورة عنهم . وانني لما وردت محمية دمشق الشام قرأ عليّ الشاب الذكي عبد القادر منظومتي التي وضعتها في (علم التشريح) قراءة تفهم وتدبر ووقوف على المعاني واتمها ثم قرأ بعدها (متن قانونجه) للعلامة محمود الجغميني المؤلف في علم الطب على نحو قراءة المنظومة واتمهُ كلهُ ثم ابتدأ في قراءة متن (الموجز) فقرأ منهُ قدراً يسيراً ثم جمعت بالسفر والتوجه لغير دمشق فطلب مني ان اجيزهُ بما قرأهُ عليّ لحسن ظنه بحالي وانني لستُ اهلاً لذلك ولكن قصدت اسعاف المذكور بذلك فاجزتهُ بما قرأهُ عليّ من منظومتي في التشريح ومتن قانونجه ومتن الموجز وانا أوصيه بتقوى الله سبحانهُ فان التقوى خير دثار والله ينفعني واياهُ بمنه وكرمه .قالهُ بفمه ورقمهُ بقلمه الفقير حسن بن محمد الشهير بالعطار المصري المغربي

هذه مقتطفات من اصطلاحات العرب في كتبهم واجازاتهم تدلُّ على مبلغ علمهم واساليب تعليمهم وتربيتهم والله الهادي الى سواء السبيل

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف